20050413-0004-L

لا يستلـزم التذكـر جهـداً

يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحاً كعاشق خطّ سطراً في الهوى ومحا

الأخطل الصغير

غطّى الدمع وجوهاً كثيرة. ترافق وصدمة الرحيل المفاجئ والعنيف. صور التقطت للبنانيين يؤمّون الشوارع وفيها يمارسون علناً أكثر طقوس الحزن خصوصية. كانت تبكي فوق القبر وتطالب الشهيد بتسمية قاتله. كان كهلاً وكان يمسح الدمع وقد سال بلا بخل فوق خدّين غير حليقين. كنا، في الصور كلها، نبكي شهيداً وقد سقط فجأة.

مع مرور الأيام، ظهرت في الصور وجوه متشنجة لا تبدو آثار الاستيعاب بادية على ملامحها، ووجوه متشنجة أخرى يبدو الاستيعاب عتيقاً فيها ولا يمت للحدث بصلة. وبسرعة، توالت الصور: «فاجأناكم موه؟»، ثم «ما فاجأتونا بنوب». «فوفو وحسّون». فتاة مرفوعة فوق كتف تضحك وتزغرد ثم تطالب بـ«الحقيقة». دبكة حول الاعتصام، خطاب نصفق ونصفر له وآخر نشتمه ولا نستمع إليه. إعلانات تجارية تملأ الشوارع، تستغل التغني بالعلم الواحد الموحد وترقص على إيقاع أهزوجة «حب لبنان» لتروج لبضاعة استهلاكية، لتروّج لمستحضرات تجميل. دوامة سريعة من الأحداث، من الفعل وردود الفعل، من الأطراف والتحيّز لها، من الصور ومن تنميقها، من الخطباء ومن الكاذبين ومن الصادقين...

خلال شهرين من الزمن، انتقلت الأغنية المصوّرة من بكاء جراح الحزن كي ينزف فوق كافة أرجاء الوطن إلى التهليل بأن الحياة التي بدأها الشهيد عليها أن تكمل مستقبلاً زاهراً في البلد. كل شيء كان حزيناً وغاضباً، بالشكل، ثم بات فرحاً محباً للحياة بالشكل أيضاً. يقال إن المضمون لم يتغيّر. الشفتان تمتدان إلى أقصى الطرفين لتأكيد السعادة، ثم تنكفئان للقاء انصهاري مستحيل، تحاولان الاختفاء في نقطة فوق الوجه، حداداً. فالنصف العاشق لخطّ سطر في الهوى ثم محوه، مرة تلو الأخرى، لا حزناً ولا فرحاً، وإنما من باب القلق.

١٣ نيسان يعود للمرة الثلاثين. فيه الضحك والدمع. إنها الوحدة الوطنية، أبعدوا شبح الفتنة. الرقم مميز، ٣٠. اللحظة أيضاً، يراد لها أن تكون خاصة بطائر الفينيق، من الموت تبعث الحياة. السرعة هنا عامل مؤثر جداً، تجعل من المواطن كائناً يعيش هيستيريا التنقل بين طرفين. يضحك وذلك ليس من باب الفرح، يبكي وذلك ليس من باب الحزن. لا يحصل على الوقت الكافي للتفكير بأي منهما، يحصل على الكثير من الخطابة التي تستدر كلاً منهما.

١٣ نيسان يعود للمرة الثلاثين. يمكن للمتفرج أن ينصرف لعيش هيستيريا العاطفة التي تبعد عنه شبح العزلة، إذ إنه لن يكون مضطراً لبذل الجهد في استعادة الذكرى. ذكرى الحرب. لماذا يتذكر بينما يمكنه أن يقرأ جريدة أو يدير جهاز التلفزيون فيجد، بالصوت أو بالصورة أو بالحور: أمين الجميّل، ميشال عون، سمير جعجع، نبيه بري، وليد جنبلاط، كريم بقرادوني، دوري شمعون، سليمان فرنجية، وسواهم... قد يظن أنه يعيش في خضم ماضي الحرب لولا تباغته صور تؤكد له أنه يهنأ بنعيم اليوم. فلقد منّ عليه القدر بـ: ناصر قنديل ووئام وهاب وبيار أمين وربما سامي أمين وغنوة جلول ووليد عيدو وفارس سعيد وسواهم.

لن يكون من الصعب علينا أن نتذكر، مهما كان عمرنا صغيراً حينها، ومهما كان وعينا ضئيلاً، كمساحة لهونا. فالذكرى، بأبطالها، ستكون ماثلة أمامنا. هذا الشاب لم يكن يعرف شيئاً عن «حرب العلم»، لكنه خلال المرحلة الأخيرة التي شهدت الإصرار على رفع العلم، وجد من يخبره عنها ويؤكد له أن رافع هذا العلم قاتل وقتل في يوم من الأيام ليلغيه من سماء البلد. وتلك الفتاة بدأ وعيها السياسي على إعادة انتخاب نبيه بري رئيساً لمجلس النواب. لكن صديقها أخبرها، بسرعة، أن «حركة أمل» كانت واحدة من أكثر الميليشيات ميليشياوية خلال الحرب وهو رئيسها منذ ذلك الحين.

الأجندات كلها فتحت، خلال الأسابيع القليلة الماضية، ومَن غابت عن ذهنه ذكرى تؤمّن ضغينة، تم استحضارها، كالمشروبات الغازية، «ببلاش»، ولكل المناضلين. ولكل مشروبه المفضل، ولكل أجندته الخاصة، وللحرب ذاتها قصص متناقضة، فقاتلي لم يقتلك، وقاتلك كان على حق.

١٣ نيسان يعود للمرة الثلاثين. ومعه، يعود طائر الفينيق. الأسطورة ذاتها تستعاد لتخبر المواطن بأنّ الموت الذي خيّم على البلد كان ضرورياً لولادة جديدة، ينعم بها الوطن. ولادة جديدة ومن بطولتي، أنا مجدداً. الديكة فوق ترابك يا أخضر يا أجمل بقعة أرض، وأنا سأقود الحلقة.

لا يمكن هضم الموت كما هو، وهو حزن كبير يجب التفكير به. ولذلك، أرفق بتجارة في القول تستفيد من هيستيريا العاطفة ولا تنظمها. تجيّرها ولا تطمئنها.

من المضحك أن يجد المرء نفسه، في كل ذكرى للحرب، عاجزاً عن نسيان أي من تفاصيلها.

من المبكي أن يجد المرء نفسه، في كل ذكرى للحرب، عاجزاً عن نسيان أي من تفاصيلها.

والعاشق يخط يومياً قصائد عشقه للبلد وللحبيب، قبل أن يستشيط غضباً فيمحوها نتيجة موت أو اختلاف أو سأم أو عوز. سنحتفل بالذكرى الثلاثين بشكل عظيم إذ إن الرقم «مميّز»، كالظرف، ذلك الظرف الذي يشهد عدم قدرة الصديق على تفهّم اختلاف صديقه في الرأي، عدم قدرة الأم على تقبّل «حقيقة» أن ابنها ليس «سيادياً»، عدم اقتناع العاشق بأسطر يخطّها في الهوى كونها لا تروي شيئاً عن غد العلاقة.

في الألبوم صور كثيرة. منها ما يثير الضحك ومنها ما يثير الدمع. وبعد ممارسة العيش لمدة ٢٧ عاماً فوق أرض لبنان، تعب الفم من الضحك وتعبت العين من ذرف الدمع ولم يبق من الحب سوى رغبة متأصلة بعدم اشتعال الحرب من جديد. وتلك ليست قناعة، لكنها سأم من حياة تم اختبارها وحشرية لعيش سواها.

سحر مندور